

معالم الصوتيات الفيزيائية والتشريحية عند فخر الدين الرازي (ت 604 هـ) من خلال تفسير مفاتيح الغيب

Physical and Anatomical Features of Phonetics with Fakhr Al-Din Al-Razi (d. 604 AH) Through the Interpretation of "Mafatih Al-Ghayb"

حورية قايش* (1)

جامعة: علي لونيبي البليدة "2"

البريد الإلكتروني: h.gaiche@univ-dbkm.dz

تاريخ النشر: 2025/12/26	تاريخ القبول: 2025/12/25	تاريخ الإرسال: 2025/09/20
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

أدرك العرب منذ البدايات الأولى للدراسة اللغوية أهمية البحث في الأصوات، فجاء الاهتمام بالجانب الصوتي متقدماً على بقية مستويات الدرس اللغوي الأخرى. وقد ظهرت ملامح هذا العلم على أيدي نخبة من أعلام اللغة العربية، على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية ومشاربهم العلمية ومذاهبهم، وكان هدفهم الأساس تصحيح ألسنة القراء ليؤدوا حروف القرآن كما ينبغي لها أن تؤدى، فاعتبر البحث الصوتي آنذاك النواة الأولى للدرس اللغوي الشامل.

ومن أبرز العلماء الذين أسهموا بجهد وافر في تشييد هذا الصرح الصوتي الإمام فخر الدين الرازي، إذ وقف أمام الأسلوب القرآني وقفة المتأمل المتدبر، مأخوذاً ببلاغة نظمته وروعة إعجازه. وانطلق في بحثه من الصوت إلى الحرف، ثم إلى المفردة، فالجملة، فالسياق وما يحويه من نظم وعلاقات بين التراكيب. ومن خلال هذا المسار الدقيق يمكن استجلاء ملامح التصور اللساني عند فخر الدين الرازي رحمه الله في جانبه الصوتي، تتبعنا ما تزخر به مقدمة تفسيره "مفاتيح الغيب" من معالجة جادة لقضايا لغوية وصوتية، إذ تناول مسائل الأصوات بالبحث والاستقصاء.

الكلمات المفتاحية: الصوتيات الفيزيائية، الصوت، الرازي، مفاتيح الغيب.

Abstract:

* المؤلف المرسل

The Arabs became attentive to phonetic research from the earliest stages of the linguistic lesson, and the phonetic investigations preceded other inquiries into linguistic levels. The seeds of this science emerged through a group of prominent scholars about Arabic across diverse orientations, cultures, and schools of thought, whose primary objective was to rectify reciters' pronunciation to ensure Qur'anic letters received their due rights. They regarded the phonetic research as the nucleus of a comprehensive linguistic research.

Among the scholars who made significant contributions to the edifice of the phonetic lesson is Fakhr Al-Din Al-Razi, who meticulously examined the Qur'anic style, proceeding deliberately and contemplatively, captivated by the eloquence, inimitability, and grandeur of its composition. He advanced in pursuit of its inimitability from sound to letter, to word, to sentence, to context and structural conditions, and to the relationships between syntactic arrangements. To elucidate the foundations of Fakhr Al-Din Al-Razi's (may Allah includes him within his mercy) linguistic conceptualization within the phonetic side, we've traced the substantial treatment of linguistic and phonetic issues within the introduction to his interpretation of "Mafatih Al-Ghayb", in which he addressed phonetic issues with thorough investigation and comprehensive research.

Key words: Physical Phonetics, Sound, Al-Razi, Mafatih Al-Ghayb.

المقال:

يُعَدّ الصوت الأساس الذي ينطلق منه كل بناء لغوي، لما له من دور جوهري في الأداء والتبليغ والتواصل الشفهي. وقد استفاد التراث العربي القديم من الظاهرة الصوتية من خلال مقاربات متعدّدة استمدتها من حقول معرفية شتى؛ إذ تناولها المفسّر، والبلاغي، والناقد، وعالم الكلام، والفيلسوف، والنحوي، وعالم التجويد، كلّ من زوايته الخاصة، ومن الموقع الذي يخدم العلم الذي ينتهي إليه، سواء بوضع أسسه، أو تأصيله، أو المساهمة في كشف غوامضه. وبناءً على ذلك، فإنّ الدرس الصوتي العربي ظلّ مجالاً مفتوحاً على مختلف العلوم، متوزعاً بينها بتعدد العلماء الذين أسهموا في تشييد صرحه وتعزيز دعائمه. وهذا كلّ شاهد على ما أولاه علماؤنا الأوائل من عناية فائقة بهذا الميدان، إدراكاً منهم لأهميته البالغة ودوره الفعّال في تفسير العديد من الظواهر اللغوية.[†]

[†] - ينظر: التحولات الصوتية والدلالية في المباني الإفرادية، سعاد بسناسي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث 2012، إربد-عمان-ص01، وهندسة المستويات اللسانية من المصادر العربية، مكي درار، الطبعة الأولى، 2012، عالم الكتب الحديث، ص.7

يُعدّ فخر الدين الرازي واحدًا من أبرز العلماء الذين أغنوا الدرس الصوتي، إذ توقّف أمام الأسلوب القرآني وقفة المتأمل المتدبّر، مأخوذًا بجلال نظمه وروعة إعجازه وبلاغته. وقد انطلق في تتبّع مظاهر الإعجاز من المستوى الصوتي، مرورًا بالحرف والمفردة، وصولًا إلى الجملة، ثم السياق بما يحويه من نظم وعلاقات تربط بين التراكيب. وللكشف عن ملامح تصوّره اللساني في تفسير مفاتيح الغيب من جانبه الصوتي، وتتبع الأسس المعرفية والمرجعيات التي اعتمدها في مقارنة محاور اللغة في بعدها التطبيقي والتجريدي، وقفنا عند ما تضمّنته مقدمة تفسيره من معالجة معمّقة لقضايا لغوية وصوتية. فقد خصّ بالبحث موضوع الأصوات، متقصيًا مسائلها، معلنًا بوضوح منذ البداية أن اهتمامه سينصبّ على حقيقة الصوت، وكيفية حدوثه، وأسباب وجوده، وآليته، إضافة إلى المباحث التشرّحية ذات الصلة.

1_ الصوتيات الفيزيائية:

يوضح الرازي في مقدمة تفسيره طبيعة بحثه ومنهجه في تناول قضايا الأصوات، حيث يقول إن الألفاظ لا تتشكل إلا من أصوات وحروف، ومن ثم كان لزامًا التعمق في دراسة حقيقة الصوت وأسباب وجوده. ويرى أن صدور الصوت عند الحيوان مرتبط بخروج النفس من الصدر، مما يستدعي البحث في ماهية النفس، والحكمة من كون الإنسان يتنفس بالضرورة، إضافة إلى كون الصوت يتكوّن إمّا عند إدخال النفس أو إخراجها. وهنا تصبح دراسة هذه الظاهرة متوقفة على معرفة أوضاع القلب والرئة، وفهم دور الحجاب الحاجز الذي يُعدّ الأساس الأول لحركة الصوت، إلى جانب الإلمام بوظائف العضلات المحركة للبطن والحنجرة واللسان والشفتين. ثم ينتقل الرازي إلى الحرف متسائلًا: هل الحرف هو عين الصوت ذاته، أم أنه هيئة مخصوصة تتشكّل في الصوت وتميّزه عنه؟ ويؤكد أن الحروف لا تنشأ إلا من خلال تقطيع الصوت وتنويعه³⁴.

يرى الرازي أن الإنسان قد خلّق مزودًا بوسائل متعددة للتواصل، ومن أبرزها الأصوات التي يستعملها في التعبير والتبليغ. ويبين أن للصوت وجوهًا عدّة؛ أولها أن النفس عند خروجه يكون سببًا في توليد الصوت، ثم تتحوّل الأصوات عبر تقطيعها إلى الحروف المختلفة، وتتحقّق هذه العملية تلقائيًا بلا عناء أو معرفة مسبقة، على خلاف الكتابة أو الإشارة وغيرهما من وسائل التعبير. والوجه الثاني أن الأصوات لحظة صدورها تزول فورًا، فهي توجد عند الحاجة وتنقضي بزوالها. أما الوجه الثالث فيمكن في أن تنوع تقطيعات الأصوات في مخارج الحروف يؤدّي إلى توليد عدد كبير من الحروف المتمايضة³⁵.

³⁴- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، تحقيق سيّد عمران، دار الحديث، القاهرة، سنة 2012، ج1، ص 34.

³⁵- المصدر نفسه، ج1، ص 37.

*-تحديد الصوت اللغوي:

يتكوّن الصوت اللغوي نتيجة اندفاع النفس وخروجه، ليصطدم بالمقاطع التي تُعرف بمخارج الأصوات. وهذه العملية لا تفرض على الإنسان جهداً يزيد عما تتطلبه وسائل التعبير الأخرى. غير أن مآل الصوت هو الزوال والفناء بمجرد حدوثه.

ويعود السبب المباشر لوجود الصوت إلى تموج الهواء؛ والمقصود بالتموج هنا ليس حركة انتقالية واحدة تبدأ من نقطة محددة وتنتهي عند أخرى، بل حالة متتابعة أشبه بموجات تتكون من صدم يتلوه صدم، وسكون يعقبه سكون. أما العلة التي تولّد هذا التموج فهي إما تماس شديد يحدث عن طريق القرع، أو تفريق عنيف يحصل بالقلع^{**1}.

يعالج الرازي البعد الفيزيائي للصوت من خلال توضيح طبيعته وتفسير أسباب نشوئه.

أ_ ماهية الصوت:

تناول الرازي في هذا الجزء طبيعة الصوت من خلال عرض جملة من الآراء ومناقشة ما يقابلها من اعتراضات. وقد استهل ذلك بطرح مسألة جوهرية تتمثل في ضرورة ضبط المصطلحات الفلسفية وتوضيحها، لتكون مدخلاً لفهم ما قد يكتنف بعض الأفكار من غموض. وفي هذا السياق وجّه نقده لابن سينا، معترضاً على تعريفه للصوت، ومبيّناً أنه أغفل التمييز بين حقيقة الشيء وماهيته من جهة، وبين السبب المؤدي إلى حدوثه من جهة أخرى.

يرى فخر الدين الرازي أن تعريف الصوت بكونه "كيفية تنشأ عن تموج الهواء بين قارع ومقروع"⁵ تعريف غير دقيق، إذ يوضح أن ما قيل لا يعبر عن ماهية الصوت وإنما يشير فقط إلى سببه، لأن حقيقة الصوت تُدرك مباشرة بحاسة السمع، وليس هناك ما هو أوضح من المحسوس حتى يُعرف بالمحسوس نفسه⁶. ومن المخارج الصوتية تتولد الأصوات بنوعها: المصوتة والصامتة. أما الصوامت، فيقسمها الرازي إلى أنواع؛ منها ما لا يمكن تمديده كالباء والتاء والذال والطاء، وهذه لا تتحقق إلا في لحظة آنية هي نهاية زمن حبس النفس وبداية إطلاقه، فهي بالنسبة إلى الصوت كالنقطة بالنسبة إلى الخط، وكالآن بالنسبة إلى الزمان⁷. ويقصد بذلك الصوامت الانسدادية التي يُغلق عند نطقها مجرى الهواء الخارج من الرئتين إغلاقاً تاماً. وهناك أيضاً صوامت أخرى تبدو قابلة للتمديد ظاهرياً، وهي قسمان: قسم يغلب الظن أنه آني الوجود في حقيقته وإن بدا زمنياً في الإحساس، مثل الحاء والخاء، وقسم آخر يغلب الظن أنه زمني في ذاته، كالسين والشين، إذ هما في جوهرهما هيئات عارضة للصوت لكنها تستمر زمناً. وهذه هي الصوامت الانسيابية التي تسمح بمرور الهواء ولو بشكل جزئي. وفي المقابل، تبقى الأصوات المصوتة متميزة عن الصوامت عند فخر الدين الرازي، استناداً إلى جملة من الخصائص والمعايير الصوتية التي فصل فيها.

** - مفاتيح الغيب، ص 40.

ب-سبب حدوث الصوت: لقد أسهم الفلاسفة وعلماء الكلام إسهامًا بارزًا في توضيح ماهية الصوت وتفسير أسباب حدوثه، وكان لجهودهم ومحاولاتهم في تحديد مفهومه، وما دار بينهم من خلافات حوله، أثر كبير في التراث الصوتي. وتعدّ تلك النقاشات خطوة متقدمة في ضبط أبعاده الفيزيولوجية والفيزيائية، وفي وضع معايير دقيقة لفهم آلية التصويت وكيفية حدوثه.^{††}

توصلت الدراسات الصوتية الحديثة خلال العقود الأخيرة إلى توضيح آلية إنتاج الأصوات اللغوية بشكل جلي، وكشفت عن العوامل المؤثرة في تنوعها. ومن أبرز هذه العوامل ثلاثة تعد الأهم في هذا المجال:

1_ حالة الوترين الصوتيين عند إنتاج الصوت.

2_ موضع اعتراض النَّفس في آلة النطق.

3_ يتحدث الرازي عن كيفية اعتراض النفس في مواضع معينة من مساره⁶، مبينًا أن السبب المباشر لحدوث الصوت هو تموج الهواء، وهو تعريف منسوب في الأصل إلى مجهول. ثم يوضح أن هذا التمرج لا يعني حركة انتقالية تسير من مبدأ محدد إلى منتهى بعينه، بل هو ظاهرة تتكوّن تدريجيًا من خلال تعاقب الصدمات والسكونات⁷، أي صدم يتبعه صدم وسكون يعقبه سكون. ويضيف الرازي أن لهذا التمرج أسبابًا محددة، فإما أن ينشأ عن قرع شديد⁸، أو عن قلع قوي، ولكل منهما درجة معينة من القوة. ويشرح القلع بأنه يشبه فصل أحد نصفي جسم مشقوق عن نصفه الآخر، كخشبة يُفصل شقّها الطولي إلى قسمين متباعدين.

ويتفق الرازي في هذا المذهب مع ما ذهب إليه ابن سينا، إذ يقول: إذا قُرِعَ جسم لين كالصوف قرعًا خفيفًا جدًّا، فلن يُدرك منه صوت، لأن الجسم المقرع ينبغي أن تكون له مقاومة معينة، ولأن حركة الآلة التي تقرر به يجب أن تتسم بقدر من العنف لتحدث الصوت. وبالمثل، فإن شقّ جسم ضعيف لا صلابه له لا يُنتج عن عملية القلع أي صوت على الإطلاق^{††}.

استنادًا إلى أقواله يمكن تلخيص العملية الصوتية عنده في ثلاثة عناصر أساسية هي:

1- وجود جسم في حالة تذبذب، وهو ما عبر عنه بـ"القرع والقلع".

2- وجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب، وهو ما عبّر عنه بـ"تموج الهواء".

3- وجود جسم يستقبل الذبذبات وهو ما عبر عنه بقوله: «إن ماهية الصوت مدركة بحاسة

السمع"^{§§}.

††- ينظر: فكرة الصوت الساذج، غانم قدوري، ص 195.

††- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله، تحقيق: محمد حسن الطيّان ويحي منير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (بدمشق)، سورية، ط 1، 1403 هـ/ 1983 م، ص 05.

§§- ينظر: مفاتيح الغيب، ج 1، ص 42.

يقارب الرازي في تصوره للعملية الصوتية ما انتهى إليه الدرس الصوتي الفيزيائي الحديث؛ إذ يذهب إبراهيم أنيس إلى أن الصوت ما هو إلا اهتزازات محسوسة في موجات الهواء، تنبعث من مصدرها وتنتشر في الفضاء حتى تتلاشى، في حين يلتقط السمع معظمها تبعاً لدرجة تذبذبها، لتوحي هذه الذبذبات بدلالات مختلفة من فرح أو حزن، نهي أو أمر، خبر أو إنشاء، بل قد تكون صدى موسيقياً أو مجرد ظاهرة اعتيادية، يقوم الدماغ بتفسيرها عبر تشابكاته العصبية أو ترجمتها من خلال ما يملكه من آليات حسية دقيقة¹¹. ومن هنا يمكن القول إن الدرس الصوتي الحديث، رغم ما توفر له من وسائل تقنية متطورة، لا يبتعد كثيراً عما توصل إليه العلماء القدامى بإمكاناتهم المحدودة.

ينتقل الرازي بعد ذلك إلى توضيح مراتب الصوت اللغوي، فيشير إلى أن الهواء الخارج من الصدر يمر بمحطات ومقاطع في الحلق واللسان والأسنان والشففتين، فتنتج عن هذا المرور الحروف المختلفة. ويقسم الأصوات الصادرة عن الحلق إلى نوعين: أحدهما ما يرتبط بظروف مخصوصة ويولد حروفاً معينة، والآخر ما يظهر في حالات كالأوجاع أو السعال ونحوها. ويرى أن الصوت يمثل جنساً بعيداً، بينما يُعدّ اللفظ جنساً قريباً. ثم يميز بين الأصوات الطبيعية التي تحاكي ما في البيئة من ظواهر، وبين الأصوات اللغوية التي تحمل دلالات ومعاني، قائلاً: «ويحدث بسبب ذلك الحروف المختلفة، وأودع في هذا النطق والكلام حكماً عالية وأسراراً»⁹.

3- تحديد الحرف:

يعرّف الرازي الحرف بقوله: «هو هيئة طارئة على الصوت»⁸ تميّزه عن صوت آخر يساويه في الخفة أو الثقل، وذلك من خلال ما يُدركه السمع من اختلاف». وبهذا يكون قد سار على نهج ابن سينا في تحديده لمعنى الحرف⁹. ويحمل هذا التعريف، على وجازته، أبعاداً معرفية مستقلة بذاتها، استنبطت من ألفاظ قليلة لكنها ذات دلالة عميقة. ويمكن تفكيك المصطلحات الواردة فيه وبيان دلالاتها على النحو الآتي:

*- **الصوت المطلق** حدث فيزيائي محض (physique du son)، فدرس انتقال الأصوات في الهواء على شكل موجات، أي التركيز على الجانب الأكوستيكي (acoustique) للصوت كظاهرة طبيعية.

*- هيئة عارضة للصوت :

يؤكد الرازي أن الكلام ظاهرة إنسانية خالصة، لا يشارك الإنسان فيها غيره من المخلوقات، إذ تصدر عنه ويعود إليه في آن واحد، بصفته المتكلم والمستمع معاً. ويرى أن الصوت الذي ينتجه الإنسان ليس سوى سلسلة من الذبذبات الهوائية المترابطة، تندفع عبر ثلاثة مسارات أساسية متميزة هي: الفم، والقصبة الهوائية، والأنف، وتُعرف مجتمعةً بالمجرى الصوتي أو الطريق الهوائي. ويضيف الرازي أن الخالق الحكيم أوجد "محابس ومقاطع للصوت"؛ فالمحابس تماثل ما عبّر عنه القدامى بمصطلح "المخارج"، أي المواضع التي يُحبس فيها الهواء، سواء كان حبسه تاماً أو جزئياً. أما المقاطع فهي ما يطرأ على الصوت فيقطع امتداده

واستمراره¹²، وقد حدّدها الرازي في الحلق واللسان والأسنان والشفيتين، باعتبارها السبب المباشر في توليد الحروف المختلفة.

*- التمايز:

يتمايز الصوت عن غيره من الأصوات المماثلة له في الحدة أو الثقل بما يُدركه السمع من فروق واضحة. ومن خلال هذا التمييز تقترب رؤية الرازي من البدايات الأولى لمفهوم "التغاير" الذي يُعدّ أساساً لدراسة الأصوات اللغوية من منظور فونولوجي، حيث يتجلى ميله إلى تحديد الوحدة اللغوية بوصفها قائمة على الاختلاف والتباين مع غيرها من الوحدات اللغوية الأخرى.

*-وظيفة السمع:

أدرك الرازي أن للسمع دوراً أساسياً في التمييز بين صوت وآخر، وهو ما يقترب من النتائج التي توصل إليها البحث اللغوي عند دي سوسير، حيث يقرر أن الأمر أكثر وضوحاً فيما يخص الدال اللغوي (signifiant)، الذي لا يُختزل في طبيعته إلى مجرد صوت مادي، إذ لا وجود له كجسد ملموس، بل يتحدد من خلال الفروق التي تميّز صورته السمعية عن سائر الصور السمعية الأخرى.⁹

يمكن إجمال تصور فخر الدين الرازي في ميدان الصوتيات الفيزيائية في الأسس التالية:

*-معالجة الجانب الصوتي فيزيائياً من خلال التحديد الطبيعي لماهية الصوت وأسباب وجوده.

*-التركيز على الوظيفة السيميولوجية للأصوات، التي تمكن الإنسان من أن يميز بين النفس والصوت والحرف.

*-ربط العلاقة وثيقة بين الصوتيات والعلوم الطبيعية.

*-وضع مصطلحات جديدة في تفسيره أثناء معالجته الصوتية فيها دقة ودلالة على البحث نحو توظيفه لمصطلح: تموج الهواء، إمساس عنيف، قرع، قلع، تفريق عنيف... وغيرها.

*-مقاربة الرازي للدراسات اللغوية الحديثة في شقها الصوتي.

2-تجليات مباحث الصوتيات التشريحية:

بعد أن تناول الرازي في تفسيره حقيقة الصوت اللغوي وأسباب نشأته من الجانب الفيزيائي، انتقل إلى إبراز دور علم التشريح في تحديد مخارج الأصوات وبيان كيفية صدورها منها، متبعاً في ذلك منهجاً شبيهاً بما قام به ابن سينا (ت 428هـ) في دراسته الصوتية. ثم عرج إلى الكشف عن دلالة الصوت داخل الكلمة والجملة والسياق. ورغم أن البحث في دلالة الصوت يُعدّ من القضايا الحديثة في علم الدلالة، فإن الرازي سبق المحدثين بخطوات بعيدة، إذ وضع أصولاً لما صار لاحقاً أساساً لأغلب ما توصل إليه علماء الصوت المعاصرون، ومن ذلك:

أ-مخارج الأصوات وصفاتها:

يرى الرازي أن فهم دلالات الأصوات لا يتحقق إلا بالرجوع إلى علم التشريح؛ فالحروف – في نظره – تنشأ من تقطيع الصوت عبر مخارج محددة في الحلق واللسان والأنسان والشفيتين، مما يستدعي دراسة أوضاع هذه المحابس، وكذلك البحث في أحوال العضلات المؤثرة في عملية النطق⁸. ويضيف أن الصوت الناتج ما هو إلا سلسلة من الذبذبات الهوائية المتتابعة، تنطلق عبر ثلاثة مسارات رئيسية متميزة هي: الفم، والقصبة الهوائية، والأنف، وهي ما يُعرف بالمجرى الصوتي أو القناة الهوائية⁹.

يمكن القول إن الرازي، بحكم إلمامه بعلم التشريح، قد قدّم وصفاً دقيقاً لجهاز النطق، يلتقي في كثير من جوانبه مع ما أورده ابن سينا، ويكاد يطابق ما توصّل إليه الدارسون المحدثون في هذا المجال.

ب- دور الشفتين في إنتاج الصوائت القصيرة:

أدرك العلماء العرب الأوائل أهمية حركة الشفتين في إنتاج الصوائت، فقد بدأ الأمر مع أبي الأسود الدؤلي الذي ربط بين الصوائت القصيرة وحركة الشفتين. وجاء فخر الدين الرازي في تفسيره ليقدم تفصيلاً أدق لأوضاع الشفتين أثناء نطق هذه الصوائت، إذ أشار إلى مخارج الضمة والفتحة والكسرة مبيّناً أن للشفتين وضعاً خاصاً عند النطق بالحركات¹⁰. ويرى الرازي أن دور عضلة الشفتين ليس أساسياً بل تكميلياً في تشكيل الصوائت، حيث يظل اللسان هو العنصر المحوري في تكوينها. كما ذهب إلى أن الشفتين تمثلان الحد الفاصل في تمييز الصوائت بين اللغات، قائلاً: «فإن أهل أذربيجان يغلب على ألفاظهم إشمam الضمة، بينما يغلب على لغات كثير من البلاد إشمam الكسرة»⁹.

لا يختلف تقسيم فخر الدين الرازي للصوائت القصيرة عن التصنيف المتعارف عليه عند القدماء والمحدثين، حيث يشير إليها بقوله: «الحركات المفردة هي الفتحة والضمة والكسرة»⁸. وقد وصفها بالصوائت المفردة ليخصّصها تمييزاً لها عن غيرها من الصوائت، مؤكداً أنها ليست عارضة بل محددة في عددها ونوعها. كما يرى أنها تتميز عن بعضها بوضوح، فيقول: «اعلم أن الحروف بأسرها تنقسم قسمين: قسم بين المخارج ظاهر المقاطع، وقسم خفي المخارج مشتبه المقاطع. وحروف العربية كلها ظاهرة المخارج بيّنة المقاطع، لا يشتبه شيء منها بغيره، بخلاف الحروف المستعملة في سائر اللغات، فقد يوجد فيها ما يلتبس بعبضه ببعض، مما يُخلّ بكمال الفصاحة. وكذلك الحركات في لغة العرب حركات ظاهرة واضحة، وهي النصب والرفع والجر، وتمتاز كل واحدة منها عن الأخرى تمايزاً جلياً. أما الإشمam والروم فقليلاً ما يردان في لغات العرب»⁹.

ج- تصنيف الأصوات:

قسم فخر الدين الرازي الأصوات إلى قسمين:

1-الأصوات الصامتة:

عرّف الرازي الأصوات الصامتة بأنها تلك التي لا يمكن مدّها أو إطالتها، مثل الباء والتاء والذال والطاء، فهي لا تتحقق إلا في اللحظة الفاصلة بين نهاية حبس النفس وبداية إطلاقه، وهي بالنسبة للصوت أشبه بالنقطة بالنسبة إلى الخط¹⁰. ويُعدّ هذا الوصف تعبيراً دقيقاً عن مفهوم الأصوات الانفجارية¹¹. ثم يضيف الرازي أن من الصوامت ما يمكن تمديده إلى حدٍّ ما، مثل الخاء والحاء من جهة، والسين والشين من جهة أخرى، مشيراً بذلك إلى الأصوات الاحتكاكية.

2-الأصوات الصائتة:

يُشير الرازي إلى أصوات المد واللين، وهي الألف والواو والياء، ويرى أن الحركات "8- أي الفتحة والضمة والكسرة - ما هي إلا أجزاء من هذه الحروف. وقد عرّف الحركة بأنها: «الصوت الذي يتلفظ به عقب الحرف مباشرة»⁹. ومن خلال هذا التصنيف أكد الرازي على الوظيفة اللغوية الجوهرية لأصوات المد والصوامت والصوائت معاً، منسجماً في ذلك مع ما ذهب إليه القدماء الذين اعتبروا الحركات إضافات تلحق بالحروف، لا أضداداً لها، لأن الحروف هي الأصول الثابتة. ويرى أن الصوامت والحركات معاً تؤدي وظيفة أساسية في النطق، ولها أثر مباشر في تغيير دلالات الكلمات.

كما فصل الرازي القول في التمييز بين الصوامت والصوائت، مبيّناً صفاتها، وكيفية النطق بها، وآلية خروجها من مخارجها الصوتية، وما يطرأ عليها من تغيرات بالزيادة أو النقصان، وأنها يسبق في النطق. وقد قاده بحثه في أسبقية النطق إلى القول بأن «الصامت يسبق المصوّت الذي يُسمى بالحركة»، وهو ما فتح أمامه باباً لمناقشة مسائل كلامية وفلسفية وجدل الفرق حول أسبقية النطق بحروف القرآن الكريم، فخاض في ذلك تفصيلاً مستعرضاً آراء المعتزلة والحشوية والكرامية والأشاعرة وغيرهم¹².

وفي السياق نفسه، امتدح الرازي اللغة العربية وفضّلها على غيرها من اللغات لما تمتاز به أصواتها من صفات، ولما تحمله من دلالات متنوّعة، خصوصاً الأصوات القرآنية التي أنتجت دلالات لا متناهية، فجعلت من البيان القرآني معجزة قائمة بذاتها¹³. وقد شاركه هذا الرأي كثير من القائلين بالإعجاز البياني من القدماء والمحدثين، الذين اعتبروا أن الانسجام الصوتي بين الحروف وجمال الإيقاع في كلمات القرآن وجمله من أبرز وجوه هذا الإعجاز.

وقارن الرازي بين مصطلحي «الأصوات» و«الحروف» بقوله: «الحروف على قسمين: بعضها واضحة المخارج ظاهرة المقاطع، وبعضها خفية المخارج ملتبسة المقاطع، وحروف العرب جميعها واضحة المخارج

بيّنة المقاطع»¹⁵. كما ميّز بين «الحروف» و«الحركات» موضحاً أن الحركات في لغة العرب ثلاث: النصب والرفع والجر، وهي حركات ظاهرة جليّة، لكل منها ما يميّزها عن الأخرى، في حين أن الإشمام والروم نادران في الاستعمال، وهما من مظاهر الفصاحة.

أما الصوائت المفردة عند الرازي فهي الكسرة والضمّة والفتحة، إذ اعتبرها المثلث الصوتي وأساس النظام الصوتي، وأشار إلى أنها الصوائت الصريحة التي تتفرع عنها صوائت قصيرة أخرى. بعد ذلك عرض الرازي مجموعة من الآراء الصوتية المتنوعة، منها ما نُسب إلى إبراهيم النظام الذي ادعى أن الصوت جسم. وقد واجه خصومه هذا القول بحجج عقلية، من بينها أن جميع الأجسام مشتركة في الجسمية لكنها لا تشترك في الصوت، وأن الأجسام تُبصر وتُلمس بخلاف الصوت، وأن الجسم باقٍ بينما الصوت فانٍ. وعليه، اعتبروا أن الصوت من المدركات الحسية التي تُدرك بالسمع، لا من الأجسام. ومع ذلك، وصف الرازي النظام بالذكاء، موضحاً أن قصده ربما لم يكن تجسيم الصوت ذاته، وإنما الإشارة إلى أن تموج الهواء هو سبب حدوثه.

كما استعرض آراء أخرى في ماهية الصوت وردّ عليها باختصار وبحجج منطقية، فقال مثلاً: «من زعم أن الصوت هو اصطكاك الأجسام الصلبة فقد أخطأ، لأن الاصطكاك مماسة وهي تُبصر، والصوت ليس كذلك. وقيل: هو القرع أو القلع، وقيل: تموج الحركة، وكل ذلك باطل لأن هذه الأحوال مبصرة، والصوت لا يُبصر».

ومن خلال هذه النصوص يتضح أن الرازي قد ميّز بوضوح بين مصطلحات الأصوات والحروف والحركات، وقسّم الحروف بحسب مخارجها وصفاتها وما يطرأ عليها من تغيّرات صوتية، وهو تقسيم يوازي في منهجيته ما انتهى إليه المحدثون في علم الأصوات كالاتي¹⁸:

*-مقاربة المخرج ومتباعدة المخرج.

*-صلبة ورخوة.

*-صلبة مقاربة ورخوة مقاربة، وصلبة متباعدة ورخوة متباعدة.

يشرح الرازي هذه الفكرة بقوله: «إذا اجتمع في كلمة حرفان صلبان متقاربان في المخرج، صَعْبُ النطق بهما؛ لأن تقارب المخارج يجعل التلفظ أشبه بإنسان مقيد يحاول السير، كما أن صلابة الحروف تؤدي إلى تراكم الجهد على الموضع الواحد من المخرج، وتوالي هذه الجهود الشاقة يسبب الضعف والإعياء، ولهذا فإن مثل هذا التركيب نادر في العربية»⁹. ويتضح من كلامه أنه يستبعد إمكانية توالي صوتين صامتين دون فاصل، فلا بد من وجود صوت مد أو حركة بينهما لتسهيل عملية النطق.

كما يشير الرازي إلى أن الأصوات يمكن أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، ويرى أن تعديلها الثلاثية، لأن «الصوت إنما ينشأ عن الحركة، والحركة لها مبدأ ووسط ومنتهى، وهذه ثلاث مراتب، فلا تكتمل الكلمة إلا باجتماعها. أما الثنائية فهي ناقصة، وأما الرباعية فهي زائدة، والغالب في كلام العرب الألفاظ الثلاثية»¹⁰.

وقد تنبّه الرازي كذلك إلى أن الصوت في السياق يختلف عن الصوت المجرد من حيث مقدار الجهد المطلوب لإنتاجه، ومن حيث تأثيره بالأصوات السابقة واللاحقة. وأشار إلى أن لهذا التأثير قوانين عامة يمكن بواسطتها الكشف عن الانسجام والتلاؤم الصوتي داخل الكلمة، وهو انسجام يتولد إما عن تقارب الحروف والأصوات أو عن تباعدها أو عن التوازن بينهما. أما إذا اختلف هذا التلاؤم، فإن عملية النطق تُفضي إلى صعوبة وإعياء.

الخاتمة:

بعد رصد تصور الرازي للصوتيات الفيزيائية وللمباحث التّشريحية بالوقوف على مقدّمة تفسيره "مفاتيح الغيب" أمكن الوصول إلى النتائج الآتية:

- تتجلى معالجة الجانب الصوتي فيزيائياً عند الرازي من خلال التحديد الطبيعي لماهية الصوت وأسباب وجوده.

- تركيزه على الوظيفة السيميولوجية للأصوات، التي تمكن الإنسان من أن يميز بين النفس والصوت والحرف.

- وضعه لمصطلحات جديدة وتوظيفها في مقدمة تفسيره أثناء معالجته الصوتية تنبئ عن دقة الدلالة في البحث.

- تأكيد على الأهمية الوظيفية اللّغوية لأصوات المد وللصوامت والصوائت على حد سواء.
- مقارنته في تصوره للصوت فيزيائياً ومن الناحية التشريحية لتصور الدرس الصوتي الفيزيائي الحديث.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- تفسير الفخر الرازي - المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإمام محمد الرازي فخر الدين، الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، 1981.
- 2- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، مصر، (د ت ط).
- 2- التحولات الصوتية والدلالية في المباني الإفرادية، سعاد بسناسي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث 2012، إربد-عمان.
- 3- الصوت اللغوي في القرآن الكريم، محمد علي الصغير، دار المؤرخ العربي، لبنان، بيروت، (د ت ط).
- 4- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله، تحقيق: محمد حسن الطيّان ويحي منير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (بدمشق)، سورية، ط1، 1403هـ/ 1983م.
- 6- النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، الرمانى علي بن عيسى (386هـ)، تحقيق محمد خلف، ومحمد زغلول سلام، 1968، دار المعارف- القاهرة.
- 7- فكرة الصوت الساذج وأثرها في الدرس الصوتي العربي، غانم قدوري الحمد، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الرابع، 2007، العراق- تكريت.
- 8- في اللسانيات العربية - الصوائت عند فخر الدين الرازي، خثير عيسى، الطبعة الأولى، 2014، عالم الكتب الحديث، الأردن.
- 9- محاضرات في الألسنية العامة، فردينان دو سوسير، ترجمة يوسف غازي، الطبعة الأولى، 1986، المؤسسة الجزائرية للطباعة الجزائر.
- 10- هندسة المستويات اللسانية من المصادر العربية، مكي درار، الطبعة الأولى، 2012، عالم الكتب الحديث.